من فلسطين إلى بريطانيا

الفلسطيني يعامل أسوأ معاملة من قبل إسرائيل، القتل والتعذيب بموافقة المحكمة العليا الإسرائيلية، هدم البيوت برنامج يومي، الحصار الكامل، وألاحظ أن الفلسطيني يشير إلى الديمقراطية ومنافاتها لكل ذلك، فيأتيه الرد الإسرائيلي واضحًا صريحًا: الديمقراطية لشعبنا وليس لعدونا، فيرد الفلسطيني هذه ليست ديمقراطية، فيأتي الجواب: هذه ديمقراطيتنا!

في زيارة لبريطانيا وجدت حركة إسلامية ناشطة بكل معنى الكلمة، سألت رمزًا من رموزها: أخي جزاكم الله ألف خير عن هذا النشاط الواسع الكبير، وأود السؤال: إلى ماذا تهدفون؟

أجاب الرجل: نريد إقامة الخلافة الإسلامية.

جاءت الإجابة خلافًا لكل ما أتوقع، وكأن رأسي قد رمي بحجر كبير، قلت للأخ: لقد أقمنا في الأندلس أرقى وأفضل حضارة، وبعد أكثر من سبعة قرون اقتلعنا من جذورنا، وكنا أكثر من ثلاثة ملايين، ثلث عبر البحر هائمًا على وجهه - من هول المصيبة - وثلث أجبر تحت التعذيب ليعلن أنه تنصر، ولم يخلص من القتل والتعذيب، وثلث مات غرقًا بعد خرق السفن التي تحمله أو مات وقتل على أيدي محاكم التفتيش.. مصير مخيف!

هـذا مصيرنـا في الأندلس، وأنتـم تركتم دولكـم لتقيموا (خلافة) في بريطانيا أم الاستعمار؟

قال الرجـل: بريطانيا ديمقراطيـة، والديمقراطية تسمح لنا ولغيرنا.

أجبت بألم شديد: الديمقراطية لم توجد كي تنتج أو تنجب (خلافـة إسلامية)، وكي تحصل على هذا فالأمر يتطلب - على الأقل - حربًا عالمية ثالثة وربما رابعة..

أيها الحبيـب أمامك القاهـرة وبغداد ودمشـق والرباط، فحـاول هناك، أما لنـدن فتذكر ما حصل لأهلـك في الأندلس، ومن جرب المجرب حلت به وبأهله وجيرانه وأحبابه (الندامة)!

لم تقولون ما لا تفعلون؟

في حيـاة الناس قيم عظيمة وممارسات قبيحة؛ لذا شددت الأديان عمومًا على هذه الحالـة الغريبة، دساتير رائعة وتطبيق أكـثر مـن سـيء، آداب عالية وواقع أسـود؛ لذا جـاء الاستنكار لذلـك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ (الصف:٢-٣).

إنه (النفاق) أن يعلن الإنسان شيئًا جميلًا ويبطن نقيضه.

عبدالعزيز قباني يناقش هذه القضية -بكل أبعادها- فيقول[1]: إن التمنيات والآمال والمبادئ دساتير وبرامج الأحزاب والهيئات والحركات السياسية وتنظيرات المثقفين -خصوصًا- في العالم العربي، ومثله العالم الثالث، أما الممارسات فهي على النقيض من ذلك تمامًا.. الديمقراطية أمنية، والاستبداد والدكتاتورية ممارسة وواقع، الوحدة العربية أمنية وأمل، والتجزئة والقطرية ممارسة وواقع، التنمية أمنية وأمل، والحرص على الواقع القائم ممارسة.. من هنا تنشأ (الأزمة)، تعارض وتناقض بين المصلحة الخاصة والعامة، بين المبدأ والممارسة، بين النظام والتفلت، بين الإرادة والعقل.. والسؤال: لماذا يفعل (القادة) خلاف ما يقولون، الأمر يشمل قادة الأحزاب والدول، فيوقعون مؤسساتهم في (أزمة)؟ الآمال والشعارات والتمنيات والمبادئ كلها من عالم (القيم) لكنها تظل من عالم (الرجاء)؛ لأنها غير قائمة في السلوك..

قيم الواقع هي (قيم العصبية) وهي نظام قيم شامل متكامل، تتكامل فيه الإرادة والعقل والحركة والنظام..

ومن قيم (العصبية) في مجتمعنا العربي: الأنانية والاستبداد والنزوع الطاغي للسلطة والقوة والتراتيبية بهما، كذلك التعصب الفئوي والانغلاق والتبعية لجماعة العصبية،

(١) العصبية ص (٢٢٢).

وفقـدان الاستقلال (ضمن إطار العصبية) والاستقلال بها عن غيرها من العصبيات.

من هنـا (تحتضن) العصبيـة بشرية الإنسـان، وما فيها مـن نـوازع أوليـة - وهي الجـزء المجرد مـن الحريـة - بسبب كونـه محكومًـا بالحتمية والضـرورة، ولإمكان التحـرك والتنبؤ بالسلـوك.. لذا فكل مـن يكون (مسكونًـا بالعصبية) لا يعترف في أعماقـه، بـل لا يقـدر أن يعترف بقانـون، ولا بسلطـة قانون (إلا بالـردع)؛ لأنه إرادتـه - بفعل قيمه، هـي القانون؛ لذا فهو يريـد أن يكون (نافذًا وقـادرًا) على كل شيء بقوتـه، فإن تعذر (فبقـوة غـيره)، وليـس بقـوة (القانـون والعدالـة).. وهذا ما يسهل (استدراجه) للوقـوع في مثل (فخ الاستخبارات) والتزام لصاحب السلطة - الأكبر والأقدر - وهذا يجعله (مدفوعًا) على الانتصار على القانون والمبدأ، وليس (بهما)؛ لأنه لا يشعر بقوته وسلطته ووجوده إلا بهذا (النوع من الانتصار)، فالضعيف - في نظـره - هو الذي يرضخ للقانون ويحترمه وشعاره (إنما العاجز من لا يستبد)... ا.هـ.

حاولـت أن لا أختصر النص - على طولـه - ليكون المعنى واضحًـا، ومـن يشك في هذا أدعـوه للتفكر والتدبـر في الحكام العـرب المستبديـن، وكيـف أداروا حكوماتهـم؟ وكيـف أداروا الصـراع داخليًـا وخارجيًـا؟ ففي الأعـم الأغلـب كان الطاغية

جاهـلًا مغـرورًا، وهو (أسد عليَّ وفي الحـروب نعامة)، من هنا تكاثرت علينا الهزائم ووصلت حد التخمة.

يسـأل وزيـر رئيسـه - من مجانـين العظمـة - عن مرجع قانـوني لأمـر يصـدره، فـيرد - بكل صلافـة ووقاحـة - ما هو القانـون؟ أليس مـا أقوله لك هو القانون؟ لذا عـد رسولنا عليه السلام من علامات الساعة (... أن يكون زعيم القوم أرذلهم) إنه حكم المنافقين الأراذل، وكفى به فخرًا وعزة وكرامة...!

العلاقة بين الحركة والنظام

كل نـار تصـير رمـادًا، وكل حركـة مجاهـدة إذا حكمـت وتحكمت صارت محافظة، هل يمكن اعتبار ما تقدم من القوانين (في الحركات)؟ وهل يمكن اعتبار ذلك في (الحضارة) أيضًا؟

لنبـدأ - مـن الحضـارة - المـؤرخ البريطـاني (توينبـي) - مفسـر التاريـخ - يـرى أن حركـة الحضـارة تشبـه (صاعد الجبـل)، فهـو لا يصعد عموديًـا، بل يسـير يمينًا وشمـالًا، مع الارتفـاع قليلًا قليلًا حتـى يصل (القمة)، هـذه صورة واضحة معروفـة، وله صورة ثانية يمثلهـا بالإنسان الذي ينسج قماشًا أو سجادة، يبدأ بحد الخيوط بطـول السجادة أو القماش، ويعرف هذا بـ (السدى) ثم هنـاك خيوط عرضية تعـرف (باللحمة)

الناسج باقٍ في مكانه والنسج مستمر، وهكذا يتكامل النسيج شيئًا فشيئًا (يلاحظ ذلك في النسج اليدوي).

بعض المشتغلين في تفسير التاريخ - ومنهم عبدالرحمن بن خلدون - يتصور أن حركة التاريخ والتحضر، تسير على شكل دائري مغلق، تبدأ بداوة يتبعها تحضر، ثم ترف لتعود بداوة من جديد..

بعض المفسرين يتصور الحركة كفصول السنة: شتاء يتبعه ربيع حضاري، وصيف يتبعه خريف وهكذا...

البعض يتصور حركة التحضر مثل نمو الإنسان: طفولة ثم مرحلة الشباب، يتبعها مرحلة الرجولة، ثم الشيخوخة والهرم..

عالم الاجتماع د. علي شريعتي يطلق نظرية يسميها (الحركة والنظام) [1] وملخصها: ثمة مبدأ يتم تعاطيه كثيرًا على صعيد (علم الاجتماع)، وهو مبدأ تحول الحركة إلى نظام، وحاصله: أنه تظهر أحيانًا - في المجتمع - حركة تمحل أفكارًا وعقائد وتطلعات، وعادة ما يكون وراء الحركة عناصر شابة، تنشط في التحرك، وتميل إلى التغيير والتجديد.. تشكل الحركة مناخًا اجتماعيًّا، يتطلع للتغيير، ويوظف أتباعها كل ما لديهم

(١) التشيع العلوي والتشيع الصفوي، ترجمة حيدر مجيد ص (٥٤) طبعة أولى عام ٢٠٠٢م، دار المير.

من أفكار وحركات وشعارات لخدمة أهدافهم، ويجعلون كل شيء بمنزلة (الوسيلة) لتحقيق (هدف النهوض)، لكن ما أن تحقق النهضة بعض أهدافها، وتصل لحد معين، حتى تبدأ بالاصطدام بعراقيل وموانع ذاتية أو خارجية، هنا تبدأ (بالتوقف والجمود) وتتسلخ عن طابعها الحركي التغييري، وعندها تبدأ (الأزمة).

إن من خصائص (النهضة) - أي نهضة - أن تبدأ وهي تحمل توجهًا حركيًّا، يوجه كل شيء لتحقيق (الهدف المنشود) أولًا.. يعقبه ويليه ثانيًا (اصطدام) لا محالة بمواقع وعراقيل، حتى تتسلخ الحركة عن طابعها (التجديدي) لتعود جامدة، حالها حال الوضع الذي (ثارت) عليه، وقامت من أجل تغييره..

كل مذهب أو مدرسة اجتماعية أو دينية أو طبقية أو قومية تظهر على أساس (تلبية) متطلبات زمانية، وتدفع أتباعها نحو العمل من أجل تحقيق هذه الآمال والتطلعات، وتجسيد الشعارات، ثم تواصل سيرها باندفاع ورغبة جامحة في كسر (القيود والحواجز) التي تعترض طريقها، وهي عادة ما تكتسب طابعًا (نقديًّا عنيفًا)، بل تحتج على كل شيء، وتقترح بديلًا عن كل حالة راهنة، أو وضع موجود... فإذا (تحققت الأحلام) وحصل التحول المطلوب، ووصلت الجماعة إلى أهدافها - كلًا أو بعضًا - أو وصلت على (أوج) قدرتها، وبلغت السقف لنموها، هنا (تنطفئ) جذوة (التغيير) في النفوس، وتضع الحرب أوزارها،

ولم يعـد أحـد في طريق الثـوار، عندها لا يبقى (لـزوم) للتوتر ولا للانفعـال، وهنا تأخذ (الحالة الثوريـة) بالتقلص والضمور تدريجيًّـا حتى تتلاشى نهائيًّا... وساعتهـا تتحول (الحركة إلى نظام) ذي طابع محافظ، ويتحـول أتباعها من خندق المعارضة على خندق السلطة..

وبالطبـع ستظهـر لديهـم نزعـة (الحفاظ علـى موقعهم السياسـي والاجتماعـي) ضد كافة الأخطـار، التي تحيط بهم، وسينظـرون - مـن الآن فصاعـدًا - إلى كل حركـة (تجديـد) علـى أنها (مؤامـرة)، تستهـدف (تقويض النظـام) وسيحكم على أتباعها (بالتمـرد والغوغائية) وتلصق بهم (تهمة الخيانة العظمى)، كل ذلك تمهيدًا لإنزال أشد وأقسى العقوبات بهم..

مـن يقـرأ التاريخ من هـذه الزاويـة، يمكـن أن يعثر على الكثير مـن الشواهد تؤيد مبدأ تحول (الحركة إلى نظام) ثابت وكيان اجتماعي جامد، يخيم علـى المجتمع ويهيمن عليه (كقوة منظمـة)، تبدو في أوج قوتها وقدرتها ونشاطها وحيويتها، لكنها في الواقع قد بلغت نقطة (التوقف والركود)... ا.هـ.

استعرضـت هـذه النظريـة وتذكـرت مـا حصـل للثـورة المصريـة، وما انتهـت إليه من حكم مستبـد لا مثيل له، وكذلك النهايـة التي وصل لها حـزب البعث في العـراق... إلى عشرات

الأمثلة والسؤال: هل يمكن تلافي هذا المصير القاتل بأن تبتعد الحركة أو الحزب أو المنظمة - مثل فتح - عن الحكم وتتحول للمعارضة مدة تجعلها تستعيد نشاطها وتتخلص من (الترهل والفساد) الذي ضربها. وهنا أستذكر ما فعله الحزب الشيوعي الصيني - حين وصل للحكم - إذ أغلق أبواب الانتساب إليه، كي يحول دون وصول العناصر الانتهازية إليه.

الأمر الآخر المفيد ما نجده في السنة النبوية، حيث تكرر التنبيه على أن الخوف ليس من الفقر، ولكن من إقبال الدنيا، ثم التنافس عليها، (فتهلككم كما أهلكت الذين من قبلكم)...

في المرحلة الأولى للحركة يقبل عليها مخلصون وعشاق مبادئ ومُثل.. فإذا وصلت الحركة أو الحزب للحكم هجم الألوف من النفعيين والانتهازيين والمنافقين، وليس بينهم مخلص ولا رجل يعشق المُثل.. إنهم (جيوش الذباب) تتجمع ولا يهمها سوى (الغنائم)، هذا (الطاعون) يفتك بأفضل المؤسسات والحركات على الإطلاق..

القرآن الكريم يتحدث عن نوع خاص من البشر، أولئك الذين كانوا ينفقون في سبيل الله يريدون وجه الله تعالى، وذلك قبل حصول التحول الكبير في تاريخ الإسلام، (قبل فتح مكة) وما حصل بعد ذلك.. يقول تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ

﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ (الحديد ١٠).

تفريق دقيق ينبغي عدم تجاهله...

أزمة مثقفينا

العالم تضربه أزمات اقتصادية وكوارث طبيعية، والمثقفون جزء من هذا العالم المتوتر والمتشنج باستمرار، فهل من المعقول أن يبقى (المثقفون) بعيدًا عن هذا الجو، أو بمنجاة منه؟

مفكرون كبار في الشرق والغرب يدقون ناقوس الخطر، من العرب د. برهان غليون ود. أحمد موصلي ود. لؤي صافي، ود. هاشم شرابي - أستاذ بيل كلنتون - وهاشم جعيط وغيرهم كثير.. ما يهمنا هو مركز المثقف فهو (رائد) ويمثل (بوصلة)، فإذا أصيب (بأزمة) فستنعكس سريعًا على مجتمعه، فهم (ملح البلد) فمن يصلح الطبخ إذا الملح فسد؟

أبدأ مع د. برهان غليون وكتابه: (اغتيال العقل) فهو من رجال علم الاجتماع، وشغله الأول (الهم الثقافي) فهو يقول[1]: إن تعلق النخب الاجتماعية عمومًا بثقافة يفترض عند تحققها

(١) اغتيال العقل ص (١١٢) طبعة سادسة.

obeikandi.com

(نفي الثقافة الشعبية وما يرتبط بها) ويوجد وضعية تظهر فيها (الثقافة القائدة) كاستعمار للعقل، وكغزو أجنبي للثقافة، وهذا لا يمكن إلا أن يدفع المجتمع إلى تنظيم (رد فعل.. فعل سلبي) يسعى من خلاله إلى طرد هذه الثقافة، أو الفئة المرتبطة بها في ذات الوقت، طردها وإبعادها من الجماعة، فإن أخفقت - هذه المحاولة لسبب ما - كانت النتيجة التحقيق لذلك هو (تحلل الثقافة القومية)، وتفكك كافة النظم (المعيارية والاعتقادية)، القائمة على أساس وحدة المعاني والمضامين والقواعد والدلالات في المجتمع، وغالبًا ما يأخذ هذا الانحلال الثقافي صورة الانكفاء الجماعي عن الثقافة (الموحدة) إلى الثقافات ما قبل (القومية).

والنتيجة: أن المجتمع يفقد (وحدته الثقافية) كما تفقد الثقافة وظائفها السياسية والعقلية والإبداعية، الداعية لصالح (هدف واحد وحيد) تصب فيه، بشكل فرضي كل الأوهام والمخاوف والأحلام والآمال الاجتماعية، أي تحقيق الذات والاطمئنان إلى الوجود... ا.هـ.

إنه تصارع أو تدافع الثقافات، الأقدر يزيح وقد يزيل الأضعف ثم يحل مكانه.

وهنا يشتد الصراع بحيث يهدد الأمة بالانقسام والتشرذم.

المفكـر القش يتحدث عن هروب المثقـف العربي من نفسه وشعبـه ليلتصق بالغـرب وثقافته، وخلال ذلـك لا يجد عيبًا ولا حرجًـا أن يتحـول إلى (سمسـار) من نوع معـين، أو وكيل ثقافي لكن لغير ثقافته..

يقول القش[1]: وهكـذا يتحرر المثقف الحديـث من عبء تمثيـل الحركـة الجماهيريـة، ومجالاتهـا (للغالب)، بـل يتجه ليصبـح ممثلًا لهـذا الغالب و(خواجا) السلطـة، إنه يستند في وضعـه (الوسيـط) بين السلطـة والشعب، يستنـد على (سلطة شكليـة) يستمدها من فوق (سلطة العلـم والثقافة) العصرية، التي تحاول أن ترث وتنافس سلطة المثقف الشعبي العضوي...

هنـا ينسى المثقـف أهله ويتذكر نفسه، ويريـد استثمار ما عنده... ولا عيب عنده أن يتحالف مع عدو أمته.

د. لؤي الصافي يرى أن ثمة أزمة شاملة تضرب بعض المثقفين العـرب، فيقول[2]: تنبع أزمة المثقف العربـي من أنه أسير ثقافة، أنتجهـا (المثقف الغربي)، فمثقفنا يعيش (خارج الزمن الثقافي العربي)؛ لذا تراه ينافح تارة عن الرؤية الحداثية، ويتبنى رؤيتها وطروحاتهـا وحلولهـا، وتارة يدعـو إلى (ثـورة ماركسية) تطيح بالطبقـة الرأسماليـة، وتستبدلها بطبقة (كادحـة)، وتراه حين

(١) في البدء كانت المعانة ص (٩٤).
(٢) جذور أزمة المثقف العربي ص (٩٢).

تتعرض الرؤيتان لنقد حاد من المثقف الحداثي الغربي، يتبنى (الطرح الجديد) ويدعو إلى تبني نتائجه الفكرية والاجتماعية، غير آبه (بالتباين البين) بين التجربتين العربية والغربية... ا.هـ.

إنه انحياز غريب وتصور بأن الأمة يمكن أن تغير ثقافتها وقيمها كما يغير الإنسان ملابسه، أو أثاث بيته!

هشام جعيط يتحدث عن تجربة الدراسة في الغرب للطالب العربي، وقد عاش هذه التجربة بكل أبعادها، فهو يقول[1]: إن الطلبة العرب الذين وفدوا على الغرب، راحوا يحملون رايات (اليسار الوجودي والبنيوية والحداثة، وما بعدها) كل بحسب الموجة التي (صادفها)، فإذا رجع إلى بلده جلب معه كتابًا أو أكثر، ثم راح يترجمه ويطرحه، لكن الملاحظ أن الترجمة والطرح تأتي متأخرة... ا.هـ.

يقول العرب: لا تطلب الحاجات في غير وقتها، ولا تطلبها من غير أهلها... الترجمة جزء مهم من الثقافة، أما تأخيرها فيقلل من قيمتها..

في اليابان كل بحث جيد يجب ترجمته وطرحه بأسرع وقت وليكن خلال نصف شهر، والمترجم الياباني يعد صاحب أفضل دخل...

(١) أوروبا والإسلام ٢٠٠١م ص (٣٨) دار الطليعة، بيروت.

وأختم بشهادة للدكتور هشام شرابي -أستاذ بيل كلنتون- يتحدث عن (مأزقنا المعرفي) الذي صار يشمل دائرة واسعة، فيقول[1]: إن المعرفة وأساليب البحث العلمي في العلوم الاجتماعية هي (أنظمة غربية) في أساليبها، وكافة أشكالها، حتى معرفتنا لذاتنا وتاريخنا ومجتمعنا في - القرن العشرين - كلها معرفة غربية في صميمها، فالعلوم الإنسانية والاجتماعية، في العالم الثالث كلها مستمدة من الغرب، وهي تنتج وتعيد إنتاج المعرفة الغربية (محليًا) ومن هنا يمكن أن نفهم أسباب الرفض (المطلق) للغرب عند الأصوليين، وإصرارهم على العودة (للدين والتراث واستعادة الهوية الأصلية) من خلال معرفة تراثية مستقلة، عن كل الأطر والمفاهيم الأجنبية... ا.هـ.

وهنا أود طرح سؤال متواضع جدًا: إذا كانت علومنا ومعارفنا ومناهجنا وجامعاتنا كلها غربية، فلماذا ينجح الغرب ونفشل؟ هل العيب في عملية النقل أم في الناقل أم فيمن نقلت إليه؟

تجربة نظام الساعات

وضعت أمريكا نظامًا لدراسة الطلبة يمنحهم حق اختيار ساعات معينة كحد أدنى وحد أعلى، كما قسمت المواد إلى

(١) النقد الحضاري ص (٣٦) مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

متطلبـات جامعة يدرسهـا الكل، وإلى جانبها مـواد خاصة بكل كليـة وقسم لمـواد اختيارية، ومن حـق الطالب اختيـار الأستاذ الذي يتتلمـذ عليه، وأن يدرس فصلًا دراسيًّـا ويتغيب آخر، كي يستطيع أن يعمل ويسدد أجور الدراسة.

هـذا النظام نقـل حرفيًّا لبعض الجامعـات العربية، وبعد سنوات بـرزت ظاهرة غريبة - خصوصًا لـدى الطلبة الأجانب - فهـم لا يرغبـون في التخـرج؛ لـذا يتهربون مـن الامتحانات، درسـت الظاهـرة وشخصت بـأن هـؤلاء الطلبـة لا يرغبون في التخـرج، والسبـب أنهم يتلقـون مكافأة من الجامعـة، يرسلون الكثير منها لأهلهم ويعيشون بالقليل المتبقي، فإذا تخرجوا قد لا يجدون فرصة عمل، وقـد ضاعت عليهم وعلى أسرهم المكافأة؛ لـذا فالأفضل عـدم (التخرج) والبقـاء في الجامعة لأطول مدة ممكنة... وهكذا لم نلاحظ عند النقل لماذا يشجع نظام الساعات علـى الدراسة لمدة فصل، وترك الجامعة لفصل، والهدف كسب المال أو الأجور الدراسيـة، وانعكس الأمر في الجامعات العربية، فعدم التخرج يدر مالًا جيدًا، ومن هنا تولدت الظاهرة الغريبة.

ظاهرة غريبة من اليابان

لي كتاب نشرته (قطر) في سلسلة كتاب الأمة، كان عنوانه: في أعماق التجربة اليابانية، وقد وجدت أن الصين وضعت نظامًا

للضرائب، وعند التطبيق فشل فشلًا ذريعًا مما دفع بالصين للتخلي عنه كليًّا، الغريب في الأمر أن اليابان أخذت هذا النظام وطبقته ونجحت أفضل نجاح، وهذا بعكس أكثر التجارب، تنجح عند أهلها وتفشل عند نقلها إلى بلد آخر أو أمة أخرى.

هيغل والديالكتيك

هيغل فيلسوف ألماني (١٧٧٠ - ١٨٣١م) صاحب اتجاه نحو (وحدة الوجود) تأثر بكل من كانت وفخته، وله تأثير كبير على الفكر الألماني.. لقد صاغ فلسفته بأسلوب صعب، يحتمل أكثر من تفسير، وقد برز هذا فيما استشهد تلاميذه - على اختلافهم - فيما كتب، المؤمنون والملحدون يجدون شواهد تؤيد دعواهم في فلسفة هيغل. وهو صاحب (الديالكتيك) الذي يعني الجدل، وهو طريقة خاصة في البحث وفي المناظرة[1]... إلا أنه حوله ليصبح طريقة لتفسير الواقع، بل جعله قانونًا كونيًا عامًّا، ينطبق على مختلف الحقائق، وألوان الوجود، فالتناقض ليس بين الآراء ووجهات النظر فحسب؛ بل هو ثابت في صميم كل واقع وحقيقته..

فما من قضية إلا وهي تنطوي في ذاتها على نقيضها ونفيها..

(١) فلسفتنا/ السيد محمد باقر الصدر (٢٢١) الطبعة الأولى.

ويعـد هيغل أول من أشاد منطقًا يقـوم على هذا الأساس. لقـد أنشـأ (فلسفته المثالية) علـى أساس هـذا (الديالكتيك)، وراح يفسر المجتمع والتاريخ والدولة، بل كل مظاهر الحياة..

فالجدل الجديد - عند أصحابه - هو قانون للفكر والواقع؛ ولذا فهو طريقة للتفكير، وهو مبدأ يرتكز عليه الواقع في وجوده وتطوره..

كيف يتصور الصراع

يعتقد هيغل أن كل قضية في الكون تعد (إثباتًا)، وتثير نفيها في الوقـت نفسـه، ثم يأتلف (الإثبات والنفـي) في إثبات جديد، فالنهـج المتناقض أو الجـدل، هو الذي يحكم العـالم، ويتضمن ثلاث مراحـل، تدعى الأطروحة والطبـاق والتركيب، وفي تعبير آخر: الإثبات والنفي ونفي النفي، ولهذا المنهج الجدلي يكون كل شـيء مجتمعًا مع نقيضه، فهو ثابت ومنفي، موجود ومعدوم، في وقت واحد..

الذي يهمنا هو الحضارة والتاريخ، يعتقد هيغل[1]:

١- كل عصـر أو مدة سياسية في (تاريخ الحضارة) تمثل وحدة مستقلة، وتمثل ملامحها السياسية والاقتصادية والأخلاقية والاجتماعيـة والدينية والفنية، تمثل كلهـا جوانب للمجموع الحي، ومنها جميعًا يتكون كيان متجانس.

(١) فلسفتنا/ السيد محمد باقر الصدر ص (٢٢٣).

٢- كل مدة أساسية تنمي فكرتها الرئيسة إلى الحد الأقصى، ثم تولد أضدادها أو نقائضها، ويستمر (الصراع) هكذا حتى تتحد المتناقضات في وحدة عليا هي (الموحد أو الجامع)، ويكون عادة أفضل من الفكرة والنقيض.

٣- من جديد ينحل هذا ليتولد عنه (فكرة جديدة ونقيض)، هكذا يستمر الحال ويستمر (الصراع)، حتى تصل الفكرة إلى (المطلق) الذي يخلو من التناقض والصراع.

٤- جوهر (التطور) لدى هيغل يأتي مما يعززه وينتجه (صراع المتناقضات)، حيث تحمل كل فكرة (تناقضًا داخليًا) يدفعها إلى الأمام، ثم لا تلبث أن تتحطم لتتحول إلى شيء جديد هو الأفضل من الفكرة ونقيضها؛ ولأنه يحمل التناقض، وبفعل الصراع فهو يكون فكرة جديدة ونقيضًا، وهكذا تستمر العملية.

٥- تبنى هيغل - وتابعه الماركسيون - بأن كل (عهد) يأتي، ومثله الحضارة، يكون أرقى وأفضل من سابقه، استنادًا إلى أن (الموحد أو الجامع) يكون أفضل من الفكرة ونقيضها، وكل ذلك يشكل خطوة للأمام... وهكذا الحال بالنسبة (للحضارة) فاللاحقة تكون أفضل من سابقتها وهكذا...

بل قيل: إن الحضارات في رقي دائم، لا سبيل إلى مقاومته[1]. والفكرة قديمة نادى بها بعض فلاسفة اليونان وتبناها هيغل وعنه أخذها الماركسيون وطاروا بها فرحًا!

(١) في معركة الحضارة د. قسطنطين زريق ص (٢٩١) طبعة رابعة.

٦- يطرح هيغل أشبه ما تكون (قاعدة) لكنها يكتنفها الغموض تقول: كل ما كان معقولاً فهو حقيقي وبالعكس فكل حقيقي فهو معقول.. إلا أن هيغل لم يعرّف المصطلحين، وجاء تلاميذه، فالمؤمن منهم يقول: الدين معقول فهو إذن حقيقي، أو الدين حقيقي وإذن فهو معقول... مثل هذا قيل في الملكية: هي معقولة إذن فهي حقيقية.. أو أنها غير معقولة فهي غير حقيقية.

وإذن لابد من تحديد المصطلحين بشكل واضح ودقيق..

بعض الأمثلة لنظرية هيغل

حتى تفهم نظرية هيغل يستحسن ذكر نماذج مما ذكره:

أولًا:

أ) الله تعالى يمثل اللامتناهي (فكرة).

ب) الإنسان يمثل المتناهي (نقيض).

جـ) السيد المسيح يجمع الفكرة والنقيض، فهو إله وإنسان.. وحسب النظرية ينبغي أن يكون السيد المسيح أفضل من الله والإنسان!

ثانيًا:

أ) عهود السلطة المطلقة في الحكم (فكرة).

ب) يعقبها عهود فوضى (نقيض).

جـ) منهما يأتي عهد دستوري، هو الأفضل من الاثنين.

ثالثًا:

أ) الزهرة في الشجرة المثمرة (فكرة).

ب) الكأس في الشجرة المثمرة (نقيض).

جـ) الثمرة تأتي من الاثنين، وتكون الأفضل منهما.

رابعًا:

أ) الوجود من حيث هو عقيم (فكرة).

ب) اللاوجود من حيث هو عقيم (نقيض).

جـ) الصيرورة المتولدة من اجتماعهما هي الأفضل منهما.

مناقشة وتحفظ

١- نسلّم بوجود الصراع بين الميول والاتجاهات المتضاربة، فهي حقيقة من حقائق الحياة يصعب إنكارها، والقرآن أطلق عليها مصطلح الدفع أو التدافع.

٢- على مستوى الأنظمة، كل نظام يحقق أغراضه، ويستوفي وجوده، ولا شيء جديد عنده، لا يلبث أن ينحل؛ ليقوم نظام جديد على أنقاضه وهكذا..

٣- يمكن القول: إن الفكرة تستفز وتحرك نقيضها، فمن يطرح الفدرالية في بلد فسيتحرك أنصار الحكم المركزي لمقاومة الفدرالية وهكذا.. أما القول: إن الفكرة يتولد منها النقيض فهذا بعيد.

obeikandl.com

٤- بالنسبة للأمثلة السابقة أرى المثال الثاني هو الأفضل، فالحكم المستبد متى انتهى يعقبه نوع من الفوضى، فإذا قام نظام قانوني سليم استتب الأمر وهدأت الأحوال.

٥- مثال الزهرة والكأس والثمرة تصور نوعًا من التدرج، وهو يختلف من نبات لآخر، والفكرة والنقيض غير واضحة هنا.

٦- القول: إن كل عهد يأتي يكون أرقى وأفضل من سابقه، ومثله الحضارة غير مسلّم، فقد تحصل انتكاسة، وقد تكون إدارة العهد بأيدي جهلة أو عنصريين أو طائفيين فتعود الأمور إلى الوراء.

٧- الحضارة تتكون من أمور مادية ومعنوية، المباني والطرق والجسور مادية والقوانين والتشريعات والثقافة والآداب والفلسفة غير مادية.. والحضارة ليست كائنًا عضويًا؛ لذا لا مانع أن تتقدم الآداب والفنون، على حين تتأخر النظم السياسية والاجتماعية، وقد تتقدم العلوم والمعارف وتتأخر الأخلاق..

٨- يقول المؤرخ توينبي - صاحب كتاب تاريخ العالم[1]: لقد ارتقى علمنا فبلغ درجة لم يسبق له أن بلغها، ومع ذلك، فقد انتكسنا في نفس الوقت في الحروب الطبقية والقومية والعنصرية، ووصلنا إلى أعماق قد لا يكون سمع بها أحد قبلنا... ا.هـ.

(١) تفسير التاريخ للكاتب ص (٧٤) طبعة ١٤١٤هـ.

صراع الطبقات

أخذت الماركسية فكرة الصراع عن هيغل، لكنها نقلتها من الصراع الفكـري إلى الصراع بين طبقات المجتمع من أجل المادة وبسببها، وتصورت تاريخ العالم - من بعد الشيوعية الأولى - إلى تاريـخ الصراع بين الطبقات، حيث تقف موقف المعارضة الدائمة لغيرها من الطبقات، فتقوم حـرب مستمرة، تختفي حينًا لتظهر حينًا آخر، حرب تنتهي عادةً إما بإعادة بناء المجتمع كليًّا، وبشكل أساسي، أو بتدمير كافة الطبقات المتصارعة[1]... ا.هـ.

وهذا الصراع الشامل للعالم مر بمراحل:

مراحل الصراع الطبقي

تعتقد الماركسيـة أن العالم مر في تاريخه بصراعات عدة، وبقي أمامه مرحلة أخيرة، وهذه المراحل هي[2]:

١- مرحلة الشيوعية الأولى أو المشاعية البدائية أو الجماعية: حيث كان كل ما على الأرض لكل من عليها؛ لذا لم يكن ثمة صراع.

٢- مرحلة الرق: بعد أن اخترع الإنسان بعض الأدوات انتقل من الشيوعيـة الأولى إلى (عهد الرق)، حيث انقسم الناس إلى أحرار وعبيد، واشتعل الصراع بينهما.

---

(١) تفسير التاريخ لصديقي ترجمة الجوادي ص (٩٠) الطبعة الأولى.
(٢) المرجع السابق ص (٨٩).

٣- مرحلة الاقطاع: بعد أن عرف الناس الزراعة، وتوسعوا فيها، انقسم الناس إلى (رجال إقطاع وعبيد الأرض)، واشتعل الصراع بين سادة الاقطاع، الذين يملكون الأرض وما عليها من إنسان وحيوان.

٤- مرحلة الرأسمالية: حين تحولت المجتمعات نحو الصناعة، فانقسم الناس إلى (أرباب رؤوس المال والعمال)، واشتعل الصراع بين الطرفين، وسينتهي الصراع بانتصار العمال، وعندها يجري التحول نحو مرحلة الشيوعية الثانية.

٥- مرحلة الشيوعية الثانية: وهنا ينتهي الصراع ويتوقف، وتحل الخلافات بالود والحوار، وبناء على ذلك تنتفي الحاجة للدولة والجيش والشرطة، وجميع وسائل القهر والاستغلال... ا.هـ.

وقد وصف د. رجاء جارودي هذه المراحل بأنها (خيالية) وإن صدقت في الغرب، فالعالم خارج الغرب لم يعرفها ولم يمر بها[1]...

المهم أن الماركسية أصيبت (بالسكتة القلبية والدماغية) وتوفيت، وتوزع الورثة (التركة) قبل أن تصل للمرحلة الخامسة، والتي تبدو نهاية غريبة، فالعالم يتصارع ألوف السنين، ودون

(١) ماركسية القرن العشرين.. وكتب ذلك يوم كان سكرتيرًا للجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي.

مقدمـات يتوقـف الصراع، وتحل كافـة القضايا بالحـوار، لقد تحـول الأسـد إلى (أرنب)، وإن كنـا أكبر المتضرريـن من هذا السقوط والشكوى لله تعالى..

صراعات مستجدة

(آلان توريـن) يسجل صراعات جديدة، طرف يتبوأ (قمة في المجتمع) وأطراف مهمشة مقصية، لا يقدرون على معارضة، وهـم منقسمـون على أنفسهـم، فريـق منهم يناضـل في سبيل (الدفـاع عن ثقافتـه) المهـددة بالأخطار، وفريـق ثالث يحاول جاهدًا (وصل القطبين)..

يقـول آلان: إن الذين يتبوءون (قمة المجتمع العالمي اليوم) يتنقلون في أرجائه، يراكمون الثروات، ومعها المعلومات، يضعون في متاحفهـم شذرات مـن كل الثقافات، إنهم يؤمنـون (بالعلم والتقنية)، كما يؤمنون (بحرية السوق) وبغياب الرقابة الثقافية السلطويـة. بينما يقبع آخرون في أدنـى دركات المجتمع المذكور، وخاصـة أولئك المستبعـدون أو المطروحون على هوامشه، فهم لا يقوون على معارضة الجماعة التي تخدم (مصالح المركز) أيما خدمة إلا بخصوصياتهم..

إن (المقهوريـن) منقسمـون علـى أنفسهـم، فريـق يطمح للتخلـص مـن (هامشيتـه) والدخـول إلى دائـرة (الضـوء)،

والمشاركة الفعلية بالثقافة الجماهيرية أو النزول إلى (ساحة الوغى الاقتصادية).. فريق ثانٍ يناضل في سبيل الدفاع عن (ثقافته المهددة بشتى الأخطار) وبين الفئتين (يتيه) الكثير من الأفراد في خضم موقف وسطي، تعصف به الأنواء، بينما يتصرف أفراد آخرون محاولين الوصول أو التوصل بين (القطبين)، بينما التباعد جارٍ يوميًا..

وهكذا نجد (مهاجرين) عازمين على (الانصهار) في المجتمع الجديد، وقطع العلاقة مع ثقافتهم الأصلية، التي تفرض عليهم وخاصة (النساء) فهناك ضغوط لا طاقة لهم على احتمالها، كما نجد آخرين عازمين (بالعكس) على طرد الغاصب، وخاصة في بلدان المركز[1]... ا.هـ.

يلاحظ أن (آلان تورين) يعد كلًا من التقوقع على الهوية، وكذلك الذوبان الثقافي من الأخطار الكبرى..

لقد أطلعت (النص السابق) لمهاجر عربي وسألته رأيه فيه، وفي هذا النوع الجديد من الصراع فقال: إن تورين يصف بصدق وموضوعية ما تعانيه مجتمعات (المهاجرين) فالصراع حاد وجاد ولا حل في الأفق القريب..

قلت: وما موقف الدول التي جاء منها المهاجرون؟

(١) ما هي الديمقراطية، آلان تورين، الطبعة الثانية ص (٢٢١).

قال: هذه الدول لا تقدر ما يعاني المهاجر وهي تنظر لمصالحها قبل مصالح المهاجر، ولا توجد دراسة جادة، ومع توجه الغرب نحو اليمين سوف تتعقد مشكلات المهاجرين، وربما اشتعل الصراع وأخذ شكلًا حادًا، يتطلب التدخل من الهيئات الدولية.

إنه صراع جديد وقد يتفجر في أي وقت وبصورة دموية مؤلمة.

سفريد هونكه: صراع جديد

المفكرة الألمانية المعروفة وصاحبة كتاب (شمس العرب تسطع على الغرب)، وكتاب: من أفول الغرب إلى طلوع أوروبا: تغيير العقلية وامتحانات المستقبل تصرح سفريد هونكه بأن حضارة الغرب تسير نحو الأفول، لكنها لا توافق ما يراه أمثال نيتشه واشبنجلر من حتمية سقوط هذه الحضارة.

وتفرق بين حضارة الغرب وأهلها، فأوروبا لن تزول، أما (الزائل) فهو (الخاصية الغربية لأوروبا)، والجديد عندها: أن الانهيار الشامل سيكون لكافة (القيم) في الغرب المسيحي، وهذا شرط أساسي، كي (تكتشف) أوروبا (هويتها الحقيقية)، ومن أجل أن تحقق نهضة في الفكر الأوروبي، وتنطلق مكتشفة هويتها الحقيقية.

إنها - سفريد - تخالف استبنجلر بإيمانه بوجود (قانون طبيعي قاهر) يسري على كل الحضارات، بحيث ينقلها من نشوء إلى نمو ثم إلى ازدهار فنضوج فشيخوخة فسقوط (دورة حضارية كاملة) [1]... ا.هـ.

وهي ترفض كل فكرة مماثلة، مثل نظرية ابن خلدون في دورة الحضارة.. طرحت سفريد نظريتها في الصراع وتفسير التاريخ في الخمسينيات من القرن العشرين، وتعتمد على (عوامل نفسية وفكرية) معًا.

ملخص النظرية

تولي سفريد الصراع الثقافي قيمة كبرى: وترى أن أي شعب يصرف ويبعد عن (ثقافته) وعن ذهنيته ومعتقداته، عن دينه وقيمه وتصوراته، إما عن طريق (الاحتلال أو التبشير)، ثم تتغلب (ثقافة أخرى على ثقافته) هنا يمر (الشعب المغلوب) بمدة تتغير فيها (قيمه) تغيرًا كاملاً، ويحدث له (خلل في توازنه وفساد في أخلاقه)، هذا الفساد الكبير يأتي عقب (ذلك الانهيار) فتسود (مدة أو مرحلة) نوع من الانسجام مع الجديد، والتعامل معه إيجابيًا، فتحدث (نهضة ثقافية) قد توصل إلى (حضارة) مزدهرة، لكن هذا الازدهار لا يلبث أن يتوقف، وليتحول شيئًا فشيئًا إلى (ركود) يعقبه تقهقر وانهيار..

(١) مجلة الفكر العدد (٥٥) ص (١٩) بيروت.

هذه (الدورة) ليس سببها شيخوخة الحضارة - كما يراها البعض - وإنما لأن عقلية الشعب راحت تعارض (البني الفكرية) تلك التي جاء بها (السيد الغالب) بوصفها غير مناسبة، وهي تحدث - مع الوقت - (فراغًا نفسيًا) فينبذها الناس، ثم يفرز هذا الفراغ (أزمة فكرية ونفسية) خطيرة، لكنها مع ذلك ضرورية؛ لأنها تمهد لظهور (العقلية الأصلية) من جديد، تلك العقلية التي جرى (كبتها زمنًا طويلًا) وحبست..

إن مهمة (الأزمة) أن تهيئ (ظروفًا مواتية) لنهضة (ثقافية جديدة) تقوم على قاعدة (العقلية الأصلية)، وتسد الفراغ الفكري، ومن مهامها أن تطلق (قوى فكرية) طبقًا لطبيعتها الذاتية، وقوانينها الخاصة..

هذه النظرية تحاول سفريد أن تطبقها على الحضارة الغربية، ونظمها الخاصة وعلى (أزمتها الفكرية والنفسية) فكيف تفعل ذلك؟

تطبيق النظرية

تعتقد سفريد أن التبشير المسيحي أخضع أوروبا إلى (تناقض) بين البنية الفكرية - منذ عهد النهضة والإصلاح البروتستانتي - فقد جرى نبذ للعناصر غير المناسبة - منذ

عصر التنوير - لتظهر (عناصر جديدة) من خلال (الأنقاض المتكدسة) في أوروبا، والتي تشملها الأزمة، تلك التي أنهكتها، دون أن تتمكن من القضاء عليها.

هنا تدرس سفريد العناصر (غير المناسبة)، بعد دراستها للتصورات الدينية القديمة، وما جاءت به المسيحية، التي تحوي على تناقض دائم، بحيث لا يمكن تخطيه؛ لأنه يفصل (المفاهيم فصلاً) غير قابل للتوفيق، فكل شيء: إما خير أو شر، طاهر أو نجس، حق أو باطل، الله أو الإنسان، الدنيا أو الآخرة، الكنيسة أو الدولة، الديني أو الدنيوي، الأرض أو السماء، الروح أو الجسد..

إن مذهب (الثنوية المسيحي) قد عاد على أوروبا (بالويل)؛ لأن الشعوب الجرمانية - وسفريد منها - كانت تؤمن بـ (وحدة الكون) وبوحدة المتناقضين، إيمانًا عميقًا راسخًا، وقد قامت على مر العصور حركات تقاوم مذهب الكنيسة (الثنوي) بعنف وشراسة، لكن الكنيسة بقيت متمسكة بمذهبها، رامية كل مخالف لها بالكفر والهرطقة، بل كل من يعتنق (دينًا آخر) كذلك، وقد أدى ذلك لأزمة (فكرية قوية)، لدى كل من لم يصدق بمذهب الكنيسة.

إن أوروبا أخذت بالتغلب على هذه (الثنوية) لكنها لم تستنفد كل ما في وسعها، وهي اليوم مقبلة على مرحلة من تاريخها - قد

طـال انتظارها - ومن المؤمل أن تنطلق خلالها، كل قواها الدينية تحـاول سفريـد تطبيق (نظريتهـا) على أوروبا، وحبـذا لو فعلت ذلك (خارج أوروبا)، لنعلم كيف تصدق هذه النظرية..

لقد قال د. رجاء جارودي: بأن (المادية التاريخية) صدقت على أوروبا، لكنها لم تصدق في مكان آخر.

ولعل من المفيد أيضًـا دراسة الفكر الروماني وأثره الكبير على حضـارة الغـرب، والعلاقة مـع المسيحية، وكيـف تعايشت ثقافتان مختلفتان في حضارة واحدة؟

الصراع بين الحق والباطل

يمكـن القـول: إن التصـارع بـين الحـق وأهلـه والباطـل وأنصـاره هو الأقـدم والأدوم، إذ لا يتصـور أن ينتهي، فما دام الإنسان يدب على وجـه الأرض فإن هذا الصراع مستمر، تتغير المسميات، وتذهب أمم وتقوم حضارات وتسقط حضارات، لكن هذا النوع مستمر..

جـولات تتبعهـا جـولات، انتصـارات تتلوها هزائـم، لكن الصـراع مستمـر، الإنسـان عاشـق للصـراع، بـل راح يعلـم الحيوانـات الأليفة كيـف تتصارع، فمـن تناطـح الأكباش، إلى تهارش الـكلاب، إلى تصارع الديكـة، وأحيانًا يدخـل الإنسان طرفًا كما في مصارعة الثيران.

نـوع من الغزال يعيش في كندا لـه قرون كأغصان الشجر، فإذا تصارع اشتبكت قرونه فيعجز عن (فك الاشتباك) ليموت مشتبكًا..

ألاحظ أن الحيوانات الأليفة تعيش بسلام ووئام فإذا حضر الطعـام دخلت في صراع، ولحسن حظها إنها لا تعرف (الملكية) مثل الإنسان؛ لذا لا يطول تصارعها وتهارشها وتناطحها.

يلاحـظ أن الاعتداء على (قرد) يستفـز إخوانه ويثيرهم وقد يهاجمون المعتدي..

إذا ترك للحيوانات - غير الأليفة - الحرية في العيش فهي تقيـم مستوطنـات لكل صنـف منها، لاحظت ذلـك في الحديقة الكبـيرة في (كينيـا) ما بـين العاصمة ومينـاء (محباسا) على المحيـط الهندي، فـكل مجموعة اختارت الأرض التي تناسبها، والنباتات التي تتغذى عليها.

ومما لاحظتـه أن (القردة) تزحف نحو الشارع العام؛ لأن المسافرين يقدمون لها طعامًا جيدًا كالموز والفاكهة، وهي تجلس على حافة الطريق ولسان حالها يقول: لله يا محسنين!

إحصائية للآيات

رجعت إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وتابعت مصطلح الحق، والباطل.. وجدت الحق تكرر أكثر (٢٩٠) مرة، في مختلف السور، أما (الباطل) فقد ورد (٣١) مرة فقط، لكنه يذكر (كمعادل) للحق في أكثر الآيات.

نماذج قرآنية

هذه نماذج قرآنية تتعرض لصراع الحق والباطل:

١- ﴿ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ ﴾ (غافر: ٥).

٢- ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴾ (سبأ: ٤٣).

٣- ﴿ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ ﴾ (الرعد: ١٧).

٤- ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء: ١٨).

٥- ﴿ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ ﴾ (الكهف: ٥٦).

٦- ﴿ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا ﴾ (التوبة: ٢٥).

آية الأنبياء (٨١)

تسجل الآية أن الله تعالى يرسل الأنبياء والرسل، مبشرين ومنذرين، لكن الكفار يجادلون بالباطل ليدفعوا الحق، ثم لا يكتفون بذلك بل يتخذون من آية الله هزوًا وسخرية..

يقول سيد قطب يرحمه الله[1]: الحق واضح، لكن الذين كفروا يجادلون بالباطل ليغلبوا به الحق ويبطلوه، وهم حين يطلبون الخوارق ويستعجلون بالعذاب لا يبغون اقتناعًا، إنما هم يستهزئون بالآيات والنذر ويسخرون.

وهؤلاء الذين يستهزئون بآيات الله ونذره لا يرجى منهم أن يفقهوا هذا القرآن، ولا أن ينتفعوا به... وبسبب استهزائهم وإعراضهم، فلن يهتدوا إذن أبدا... ا.هـ.

معلوم أن من يطلب الحق ويريد الهداية لا يستخدم السخرية والاستهزاء، فإن فعل ذلك فهذا الطريق سيدفع بصاحبه بعيدًا عن الحق، ومثل ذلك المعاند والمتكبر والعنصري الذي يرى نفسه وقومه وحضارته فوق الداعين للحق، فهذا يصعب عليه قبول الحق ممن يحتقره ويستصغره، وبالتالي يتعذر عليه قبول شيء منه.

---

(١) الظلال ٣٩٣/٥، الطبعة السادسة.

آية غافر (٥)

سورة غافر تعالج الصراع بين الحق والباطل بشكل عام.

يقول سيد قطب[١]: هذه السورة تعالج قضية الحق والباطل، قضية الإيمان والكفر، قضية الدعوة والتكذيب، وأخيرًا قضية العلو في الأرض والتجبر بغير الحق.. وفي ثنايا - هذه القضية - يأتي موقف المؤمنين المهتدين الطائعين، ونصر الله إياهم، واستغفار الملائكة لهم، واستجابة الله لدعائهم، وما ينتظرهم في الآخرة من نعيم.

وجو السورة كله كأنه جو معركة، وهي بين الحق والباطل، بين الإيمان والطغيان، بين المتكبرين المتجبرين في الأرض، الذين يأخذهم الله بالدمار والتنكيل، وتنسم خلال هذا الجو نسمات الرحمة والرضوان، حين يجيء ذكر المؤمنين.

هذا الجو يتمثل في عرض مصارع الغابرين، كما يتمثل في عرض مشاهد القيامة - وهذه وتلك تتناثر في سياق السورة وتتكرر بشكل ظاهر، وتعرض في صورها العنيفة الرهيبة المخيفة، متناسقة مع جو السورة كله، مشتركة في طبع هذا الجو بطابع العنف والشدة..

---

(١) الظلال ١٩٥/٥، الطبعة السادسة.

على العموم فالسورة كلها تبدو وكأنها مقارع ومطارق تقع على القلب البشري، وتؤثر فيه بعنف، وهي تعرض مشاهد القيامة، ومصارع الغابرين، وقد ترق أحيانًا، فتتحول إلى لمسات وإيقاعات تمس هذا القلب برفق، وهي تعرض حملة العرش ومن حوله يدعون ربهم ليتكرم على عباده المؤمنين، أو هي تعرض عليه الآيات الكونية والآيات الكامنة في النفس البشرية، وتضرب بعض الأمثلة، التي ترسم جو السورة وظلها في هذه وتلك..

من مصارع الغابرين: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؟

يستعرض الكاتب السورة من أولها حتى ينتهي لجدال الكفار في آيات الله، فيقول[1]: الكفار وحدهم - من بين هذا الوجود الهائل يشذون - وهم وحدهم من بين هذا الخلق العظيم ينحرفون، وهم - بالقياس لهذا الوجود - هم أضعف وأقل من النمل بالقياس لهذه الأرض، وهم حين يقفون في صف يجادلون في آيات الله، ويقف الوجود كله الهائل في صف معترفًا بخالق الوجود، مستندًا إلى قوة العزيز الجبار، إنهم في هذا الموقف

(١) الظلال ١٦٥/٥ مرجع سابق.

مقطوع بمصيرهم، مقضي في أمرهم، مهما تبلغ قوتهم، ومهما يتهيأ لهم من أسباب المال والجاه والسلطان.. فمهما تقلبوا وتحركوا وملكوا واستمتعوا، فهم إلى اندحار وهلاك وبوار، ونهاية المعركة معروفة، إن كان ثمة معركة يمكن أن تقوم بين قوة الوجود وخالقه، وقوة هؤلاء الضعاف المساكين..

لقد سبقتهم أقوام وأحزاب - على شاكلتهم - توحي عاقبتهم بعاقبة كل من يقف في وجه القوة الطاحنة العارمة، التي يتعرض لها من يعرض نفسه لبأس الله..

إنها قصة قديمة من عهد نوح عليه السلام، معركة ذات مواقع متشابهة، في كل زمان، قصة الرسالة والتكذيب والطغيان - على مدى القرون والأجيال - كما تصور العاقبة في كل حال.

رسول يجيء، فيكذبه طغاة قومه، ثم لا يقفون عند مقارعة الحجة بالحجة، إنما يلجأون إلى منطق الطغيان الغليظ، فيهمون أن يبطشوا بالرسول، ويموهون على الجماهير بالباطل، ليغلبوا به الحق، هنا تتدخل يد القدرة الباطشة، فتأخذهم أخذًا يعجب ويدهش، ويستحق التعجب والاستعراض: (فكيف كان عقاب)؟

لقد كان عقابًا مدمرًا قاضيًا عنيفًا شديدًا، تشهد به مصارع القوم الباقية وآثارها... ومتى حقت كلمة الله على أحد، فقد وقعت وقضي الأمر، وبطل كل جدال.

هكـذا يصور القرآن الحقيقــة الواقعة، حقيقة المعركة بين الإيمــان والكفر، بــين الحق والباطـل، بين الدعــاة لله الواحد، والطغاة الذين يستكبرون في الأرض بغير الحق..

إنهــا معركة قديمة بدأت منذ فجــر البشرية، أما ميدانها فهــو أوسع من الأرض؛ لأن الوجود كله يقف مؤمنًا مسلمًا، ويشذ منــه الذين كفــروا، يجادلــون في آيات الله، وحدهــم دون سائر الكــون الكبــير، ونعلم نهاية المعركة - غــير المتكافئة - بين صف الحــق الطويــل الضخم، وشرذمــة الباطل مهما يكــن تقلبها في البلاد، ومهما يكن مظهرها من القوة والسيطرة والمتاع.

هــذه الحقيقــة - حقيقة المعركــة - والقوى البــارزة فيها، وميدانها في الزمان والمكان، يصورها القرآن لتستقر في القلوب وليعرفهــا أولئــك الذيــن يحملــون دعــوة الحــق والإيمــان، فلا تتعاظم قوة الباطل الظاهرة في مدة محدودة من الزمن، ورقعة محدودة من المكان، فهذه ليست الحقيقة، إنما الحقيقة هي التي يصورها كتــاب الله، وتنطق بها كلمة الله، وهو أصدق القائلين، وهو العزيز العليم... ا.هـ.

إنهــا (أم المعــارك) القديمــة قــدم العــالم، والمتجددة مع الأيــام، معركــة بين طرفين، كلــم طرف له حشــده في الصراع، والبحــث عــن أدوات مستجــدة، وعن حلفــاء أقويــاء، معركة لا

يذهب بجدتها وجديتها الزمن ولا الأيام، تتساقط الأمم، وتنهار حضارات، وتقوم مكانها غيرها لكن المعركة مستمرة، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وينادي: لمن الملك اليوم؟!

للحق أهله وأنصاره، وللباطل كذلك، فإذا كان المؤمن ضعيفًا، وكان الكافر جلدًا قويًا، فالهزيمة للأضعف، من هنا نفهم مقولة عمر الفاروق حين كان يردد: أشكو إلى الله جلد الفاجر وضعف المؤمن.

فمتى اعتقد المؤمن أنه منتصر لا محالة، واطمأن لذلك، ولم يحسن تسويق قضيته، ولا أحسن التحالف، فهو سيخسر المعركة.

وقد خسر بعض الأنبياء - وهم أفضل وأصدق خلق الله - معارك، فلو كان النصر لا يتوقف على جهد صاحبه لوجب أن ينتصر أنبياء الله في كل مواجهة، فإن اعتقد الإنسان المسلم أنه (منصور)؛ لأن الحق معه، فقد يخسر معارك الدنيا، وقد تلحق به هزائم متوالية، وللشيخ محمد عبده كلام صريح في هذا.

محمد عبده والعناية بالسنن

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ (الكهف: ٥٥).

ولأهمية السنن فقد طالب الشيخ محمد عبده يرحمه الله أن يدرس العلماء هذه السنن الكونية، كما درسوا علوم الفقه وأصوله وغيرها[1]..

وقد نقل عنه (رشيد رضا) هذا الاهتمام، وضرب مثلًا بما يعتقده اليهود من أن الله تعالى اختارهم من بين جميع البشر، وهو يحابيهم ويتجاوز عنهم، ما لم يفعله مع الأمم الأخرى، ورد كل ذلك بأنه يناقض ويناقض (العدل الإلهي)، فالله تعالى لا يحابي أحدًا، ولا يفرق بين عباده، فهو يرزق الكافر كما يرزق المؤمن، ثم يحاسب كل واحد عما قدم.. ويقول: لقد جاء القرآن يبين للناس أن مشيئة الله تعالى في خلقه إنما تنفذ وفق (سنن حكيمة) وطرائق قويمة، فمن سار على (سننه في الحرب) ظفر بمشيئة الله، وإن كان ملحدًا أو وثنيًا، ومن تنكب عنها خسر وإن كان صديقًا نبيًا، وعلى هذا يتخرج انهزام المسلمين في موقعة أحد... ا.هـ.

ومعلوم أن الكون مشحون بالسنن، بعضها تخص الإنسان، والبعض تخص الكون، هذه السنن لا تعمل منفردة، بل متداخلة متشابكة متعاونة متكاملة، ومطلوب من الإنسان معرفتها بشكل جيد ليحسن التعامل معها، كما لا يمكن تجاهلها ولا القفز عليها..

فإذا كانت السنن كذلك فما موقع (المعجزات) منها؟

(١) تفسير المنار ١٣٩/٤.